

اسم الجامعة: المستنصرية

اسم الكلية: الآداب

القسم علم النفس

اسم المحاضر: م.م رقية سهيل

اسم المادة: الانثربولوجيا

عنوان المحاضرة: تأثير الثقافة على النسق الاجتماعي

تسلسل المحاضرة: 15

تأثير الثقافة قوي وفاعل في الحفاظ على النسق الاجتماعي السائد، ويتجلى ذلك فيما تقدّمه إلى أفراد المجتمع في الجوانب التالية :

1- توفّر الثقافة للفرد، صور السلوك والتفكير والمشاعر، التي ينبغي أن يكون عليها، ولا سيّما في مراحلها الأولى، بحيث ينشأ على قيم وعادات تؤثر في حياته، بحسب طبيعة ثقافته التي عاش فيها .

2- توفّر الثقافة للأفراد، تفسيرات جاهزة عن الطبيعة والكون وأصل الإنسان ودورة الحياة .

3- توفّر الثقافة للفرد المعاني والمعايير التي يستطيع أن يميّز – في ضوءها- ما هو صحيح من الأمور، وما هو خاطيء.

4- تنمّي الثقافة الضمير الحيّ عند الأفراد، بحيث يصبح هذا الضمير – فيما بعد- الرقيب القوي على سلوكياتهم ومواقفهم .

5- تنمّي الثقافة المشتركة في الفرد، شعوراً بالانتماء والولاء، فتربطه بالآخرين في جماعته بشعور واحد، وتمييزهم من الجماعات الأخرى .

6- وأخيراً، تكسب الثقافة الفرد، الاتجاهات السليمة لسلوكه العام، في إطار السلوك المعترف به من قبل الجماعة.

إنّ ردود فعل الفرد تجاه النظام، هو الذي يؤدي إلى نموذج السلوك الذي ندعوه ” الشخصية “. وتصنّف النظم في أنظمة أولية ونظم ثانوية. فالنظم الأولية : تنشأ عن الشروط التي يمكن أن يتحكّم فيها الفرد، (كالغذاء والعادات الجنسية، وأنظمة التعليم المختلفة). أما النظم الثانوية : فتنشأ من إشباع الحاجات وانخفاض التوتر الناتج عن النظم الأولية. مثال ذلك : اعتقاد بعض الشعوب بألهة، تطمئن القلق الناتج عن حاجة هذه الشعوب إلى تأمين موارد غذائية دائمة. إنّ ما يميّز هذا الرأي عما سبقه، هو صفته الديناميكية، لأنّ بنیان الشخصية الأساسية ينتج عن تحليل النظم الاجتماعية، وتحليل أثرها على الأفراد في ثقافة بعد أخرى.

ولذلك يلاحظ أنّه عندما تختلف الثقافة يتبعها اختلاف في أنماط السلوك. فإنسان العصر الحجري القديم يختلف عن إنسان العصر الحجري الجديد، ويختلف أيضاً عن إنسان العصر البرونزي والعصر الحديدي. فالإنسان الذي يستخدم الأدوات البدائية كالأحجار والعظام والخشب، ويأكل البذور والجنور والحشرات والطيور، ويخاف من النار، لا يتوافق ثقافياً مع الإنسان الذي يستخدم الكهرباء أو يتحكّم بالآلات عن بعد، ويأكل الطعام من المطبخ ويتفنّن في صنع الأنواع المختلفة منه، وغير ذلك. وحتى في هذا العصر، فالإنسان الذي يعيش في دولة متحضّرة وتختلف ثقافته عن ثقافة الإنسان الذي يعيش في دولة نامية، فإنّ سلوك الأول – ولا شك – يختلف عن سلوك الثاني، تبعاً للزاد الثقافي الذي تزوّدت به شخصيته.

وقد أدّى التخلّي عن الفرضية التطورية التي استغلّها العلماء الأنثروبولوجيون الأوائل، فيما بعد، إلى تسهيل الدمج بين الأسلوبين : الأنثروبولوجي والسيكولوجي،.. والواقع أنّ الفرضية (النظرية) التطورية تلاشت، وحلّ محلّها مفهوم الثقافات بوصفها وحدات وظيفية متكاملة، كما ظهر الاتجاه إلى دراسة المجتمعات البدائية باعتبارها كيانات قائمة بذاتها، وهذا ما دعا إليه / مالبينوفسكي / الرائد الأول لهذه الحركة.

وهكذا يمكن القول : إنّ الثقافة تضفي على حياة الفرد قيمة ومعنى، وتكسب وجوده غرضاً له أهميته. وهي بالتالي تمدّ الأفراد بالقيم والأمال والأهداف التي توحدّ مشاعرهم وأساليب حياتهم. غير أنّ تشكيل الثقافة للفرد على هذا النحو، لا يعني – بأي حال من الأحوال – إلغاء فرديته، إذ بواسطة الثقافة تنمو إمكانياته وتتحرّر قواه، ويكتسب قدراته المتعدّدة،

ويصبح بالتالي قادراً على الاختيار الصحيح والتمييز الواعي. هذا مع الأخذ في الحسبان الفروق الفردية بين الأشخاص، من حيث تأثرهم بالثقافة أو تأثيرهم فيها .

لقد ناقش العلماء طويلاً فيما إذا كان عالم الأنثروبولوجيا، يستطيع دراسة الشخصية في المجتمعات البدائية، دون أن يخضع – هو نفسه- للتحليل النفسي. ولم يدر حديث طويل عما إذا كان يجب على عالم التحليل النفسي الذي يهتم بالدراسة المقارنة للثقافات، أن يحصل على معلومات مستمدة من خبرة مباشرة بالمجتمعات التي تختلف عن مجتمعه اختلافاً تاماً، في الجزاء والأهداف وأنظمة الحوافز والضبط الاجتماعي .

فالواقع أنّ القليل من علماء التحليل النفسي، الذين أبدوا اهتمامهم بهذه المشكلات، أجروا بأنفسهم أبحاثاً ميدانية لاختبار نظرياتهم بين جماعات، تقع خارج نطاق الثقافات / الأورو- أمريكية / . وهذا ينطبق أيضاً- وإلى حد ما- على علماء النفس التقليديين، الذين يتناولون بالبحث سيكولوجية الثقافة، وعلى العلماء الذين يستخدمون طرائق ومفاهيم المدرسة التحليلية .

غير أنّ مجرد الإقرار بأنّ تركيبات الشخصية الأساسية تختلف باختلاف المجتمعات، لا يحقّق تقدماً أكثر من مفهوم النمط الثقافي السيكولوجي. ولا يكتسب هذا الإقرار أهمية علمية إلا إذا أمكننا تقصي طريق تكوّن الشخصية الأساسية، وإرجاعها إلى أسباب يمكن التعرف إليها . . وإذا أمكننا أيضاً التوصل إلى تعميمات هامة بشأن العلاقة بين تكوّن التركيب الأساسي للشخصية، وبين الإمكانيات الفردية الخاصة في مجالات التكيف. ومما يلاحظ أنّ سيكولوجية الشخصية، سارت في خطّ تطوّري يكاد يكون مماثلاً لخط تطوّر الأثنولوجيا. فقد وقع هذا الفرع في بادئ الأمر، تحت تأثير العلوم الطبيعية، فحصر اهتمامه في الفرد، وحاول تفسير أوجه التشابه والفروق الفردية على أسس نفسية. ومع أنّ علماء النفس سرعان ما أدركوا أهمية البيئة في تشكيل الشخصية، فإنّ فائدتها اقتصرت – في البداية- على استخدامها في تفسير الفروق الفردية.

لقد اعتمد الباحثون النفسيون – في الواقع- على نتائج ملاحظاتهم المحدودة، كما لو أنّها قضايا مسلّم بصحتها، فافترضوا وجود غرائز عامة متنوّعة لتعليل ما لاحظوه من ظاهرات . . ثمّ تبين لهؤلاء العلماء أنّ معايير الشخصية تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات، فكان هذا الاكتشاف بمنزلة صدمة اضطرتهم إلى اتخاذ خطوات جذرية لإعادة تنظيم مفاهيمهم.

ولذلك، فإنّه على الرغم من أنّ الشخصية ليست في واقع الحال، إلاّ نتاجاً للعوامل الثقافية في المقام الأول، فإنّ الفرد ينزع – من خلال تجربته الثقافية – إلى تبني الشخصية النموذجية التي ترغب فيها جماعته. ولكنّ نجاح ذلك لا يتحقّق بالكامل أبداً، لأنّ بعض الأشخاص أكثر مرونة من غيرهم، وبعضهم الآخر يقاوم عملية التثقيف أكثر من غيره .

وهنا يمكن أن نميّز بين ثلاث طرائق في بحث التفاعل بين الفرد وبين وسطه الثقافي.

الطريقة الأولى : هي طريقة "الأشكال الثقافية"، التي تسعى إلى تحديد الأنماط السائدة في الثقافات، والتي تحبّذ نمو بعض نماذج الشخصية .

الطريقة الثانية : هي طريقة " الشخصية النموذجية " التي تؤكد ردود فعل الفرد تجاه الوسط الثقافي الذي ولد فيه. وهي طريقة أنثولوجية في أساسها، لأن المرجع فيها دائماً هو النظم الاجتماعية، والأنماط الثقافية، التي تشكل الأطر التي ينمو بداخلها ببناء الشخصية السائد لدى الجماعة. فهي تركز اهتمامها على الفرد، معتمدة على تطبيق التحليل النفسي على الدراسة المقارنة لمشكلاتٍ أوسع، تتمثل في مشكلات التلاؤم الاجتماعي.

الطريقة الثالثة : هي " طريقة الإسقاط Projection" التي تستخدم طرائق الإسقاط المختلفة في التحليل، ولا سيّما مجموعة / رورشاخ / من بقع الحبر، وذلك لتحديد نطاق ببناء الشخصية في مجتمع معين. وفي هذه الطريقة يتمثل كل من الفرد والثقافة. ولا شكّ في أنّ استخدام اختبار موحّد ترجع إليه النتائج كلّها، يزوّد بأداة منهجية لمعرفة بيان شخصية أفراد جماعة ما، في ضوء تثقيفهم على النظم الاجتماعية والقيم في ثقافتهم.

فالثقافة لا تؤثر في أفراد المجتمع جميعهم، بطريقة واحدة، ولهذا يمكن أن يقسم تأثير الثقافة في الفرد إلى فئتين أساسيتين :

أولهما – التأثيرات العامة : وهي التأثيرات التي تحدثها الثقافة في الشخصيات المتطورة، من جميع أعضاء المجتمع الذي ينتمي إلى هذه الثقافة .

وثانيهما-التأثيرات الخاصة : وهي التأثيرات التي تحدثها الثقافة في أشخاص، ينتمون إلى جماعات أو قطاعات، أو فئات معينة من الأفراد، يعترف المجتمع بوجودها.

وعلى الرغم من ذلك، يصبح الجميع – بوجه الإجمال – متشابهين إلى حدّ يكفي لأن يجد المرء – إذا ما طاف حول العالم – أنّ الناس يختلفون بعضهم عن بعض، من مجتمع إلى آخر، تبعاً لاختلاف الثقافات الواحدة عن الأخرى. ولكن بينما يسعى الأفراد إلى نيل الموافقة والحصول على الطمأنينة، ويحاولون الامتثال لأنماط السلوك التي تقرّها الجماعة أو التفوق على أقرانهم، فإنّ ثقافتهم تحدّد لهم الأهداف التي ينشدونها وطرق الوصول إليها. وهذا هو موضع اهتمام (سيكولوجية الثقافة Psychology of Culture، أو السيكو أنثوغرافيا Psychoethnography، وهو دراسة الفرد من خلال السياق الثقافي الذي يؤدي إلى تلاؤمه مع قواعد السلوك القائمة في مجتمعه عندما يصبح عضواً فيه. وهنا يكمن جوهر إحدى المشكلات الأساسية في دراسة الثقافة، والمتمثلة في معرفة تأثير السياق الثقافي في المجتمع، على نمو الشخصيات الفردية وتطوّرها العضوي والفكري والنفسي.

وبما أنّ الثقافة – في جوهرها – ظاهرة اجتماعية نفسية، تعيش في عقول الأفراد، ولا تجد تعبيراً عن نفسها إلاّ عن طريقهم، فإنّ دور الشخصيات الفردية في الإبقاء على الثقافة يتّضح بصورة جلية جداً، في الطريقة التي تتمكّن بها أية ثقافة من البقاء على قيد الحياة، حتى بعد انقطاع التعبير عنها في سلوك خارجي ظاهري، وحتى بعد زوال المجتمع الذي كان يحمل هذه الثقافة في الأصل. ولذلك، يستطيع عالم الأنثولوجيا أن يستعيد العناصر الأساسية لثقافة مجتمع منقرض، من آخر رجل من هذا المجتمع بقي على قيد الحياة. كما يستطيع أن يستعيد المهارات الخاصة التي سبق أن تدرب عليها هذا الرجل.

وتأسيساً على ما تقدّم، نجد أنّ ثمة علاقة وثيقة وتفاعلية بين الثقافة وأبنائها، فهي التي توجّههم في جوانب حياتهم المختلفة، لدرجة أنّهم يتصرّفون بطريقة منسجمة وآلية، في معظم الأحيان. والأفراد في المقابل، يؤثرون في هذه الثقافة ويسهمون في تطویرها وإغنائها، من خلال نتاجاتهم وإبداعاتهم الفكرية والفنية والعلمية. ولذلك، نرى اهتمام علماء التربية والاجتماع والأنثروبولوجية، بدراسة الثقافة للتعرف إلى السمات العامة للفرد أو الجماعة (المجتمع) في إطار مكونات هذه الثقافة، والتعرف بالتالي إلى أنماط الحياة الاجتماعية للناس، وتفسيرها والتميز فيما بينها